الطفل والطفولة في شعر السياب

أ.م.د. محمد صالح رشيد
كلية التربية الاساسية / جامعة الموصل

تاريخ تسليم البحث: ٢٠١٠/١١/٨ ؛ تاريخ قبول النشر: ٢٠١١/٩/٢٠

ملخص البحث:

إن الطفولة هي المفتاح إلى شخصية بدر شاكر السياب، وإلى أدبه، وكل محاولة لفهمه – إنسانا وأديبا- خارج دائرة الطفولة، هي محاولة ناقصة.

لقد تشبث بلفظة الطفل والطفولة ودلالاتهما تشبثا يعكس عمق معاناته وفرط حساسيته تجاه مرحلة قاسية من عمره رافقته آثارها حتى الكبر.

لقد كانت بواكير قصائده تتضمن جزءا كبيرا من صور طفولته في جيكور، حيث اليتم والحرمان العاطفي ثم الافتراق عن الأهل، والحقيقة أن قصائده الأولى كانت عاطفية ذاتية مباشرة، إذ كانت كل صورها في محيط حياة الشاعر وقريته ومعاناته الشخصية ، لكنه بعد قراءاته لأشعار الغربيين وتوسع أفق رؤيته الفكرية جاء توظيفه للطفولة بفنية تعبيرية عالية التي وضعته – مع مجالات توظيفات أخرى- في مصافي كبار الشعراء الذين يتحول في نتاجاتهم كل معنى أو فكرة إلى رموز ودلالات كبرى وعميقة.،

تراوحت دلالة الطفولة في شعر السياب بالإيجابية دائما حتى في تلك الصور التي أظهر فيها الطفل والطفولة مسحوقا مضطهدا محروما ...الخ، لأنه كان يعرف كم للطفولة من تأثير إنساني على المتلقين، فما يقرأونه كصورة سوداء ، يتعاطفون معه وجدانيا، وهذا هو الهدف والغاية النهائية من توظيف هكذا موضوع إنساني حساس.

The Child And Childhood in Alsayyab's Poetry

Assist. Prof. Mohammed Salih Rasheed
Mosul University, Basic College of Education

Abstract:

Childhood is the key of AlSayyab's character and to his literary work and each attempt to understand him - as a human and as a literary man - can never be considered complete without the domain of childhood.

The poet was always bound with the words "child" and "childhood" and their denotations in a way that reflects his excessive sensitivity towards a hard period of his life that its influences continued with his life.

The first poems of AlSayyab were directly sentimental because most of their images were from his life environment in his village. These poems embodied his sufferings when he was a child because of his frequent losses of kindness and as a result of being an orphan. But, after he read the poems of the western poets and after having a wider horizon of thinking, he employed the childhood in a high artistic forms, which made him – in addition to other uses he employed – one of the great

poets in whose products each meaning or idea changes to be a great symbol and denotation.

التمهيـــد

أ. تعريف موجز:

ولد الشاعر في قرية (جيكور) من لواء البصرة عام (١٩٢٦) ، وكان أبوه مزارعا يعتـاش علـى ماتدرّه أشجار النخيل له من تمر وفير، فعاش بدر السنوات الأولى من طفولته في مستوى اجتماعي ومـاديّ لائق إلى أن اختطف القدر والدته سنة (١٩٣٢)، فرحلت عن دنياه الصغيرة، وكان لهذا الرحيل المبكر أثـره المؤلم في وجدان الطفل الذي غدا يتيما فاقدا لألذ حنان وهو حنان الأم!، ولاشك أن لهذا الحدث المفجع آثـارا كبيرة في نفسيته وهو صغير، وبقيت دفينة في أعماقه حتى وجد – فيما بعد- منفذا لها في الشعر على شـكل صور حزينة باكية، ومما زاد من شعوره بالحرمان العاطفي هو بعد زواج أبيه بامرأة أخـرى دخلـت إلـى البيت، وآستحوذت على حياة الآسرة، فكان ذلك الحدث صدمة أخرى تلقاها الصبي بدر الذي لم ير جدّه (من أمه) بداً إلا إبعاده عن موطنه الذي يشعره بالحزن والضياع، فرحل على مضض سنة (١٩٣٥) وهـو آبـن التاسعة عن جيكور- مربى طفولته إلى بيت جده[١].

أبي ..، منه قد جردتني النساء ... وأمي طواها الردى المعجل[٢].

كان تعليمه الأولي بمدرسة إبتدائية في قرية باب سليمان وهي قرية قريبة من جيكور، وبـدأ بهـذه المرحلة يعجبه الشعر قراءة ونظما ، وهذا الحرص على التعلم والقراءة شجع جدّه أن يرسـله إلـى مدينـة البصرة ليكمل دراسته الثانوية التي أنهاها عام(١٩٤٣) ، وكان عليه لكي يكمل تعليمه العالي أن يهجر جيكور والبصرة والجنوب إذ شدّته نداءات بغداد المدوّية، فدخل عاصـمة الرشـيد صـبيحة أحـد الأيـام أواخـر سنة(١٩٤٣)، ملتحقا بدار المعلمين العالية التي تخرج منها نهاية سنة (١٩٤٩) بشهادة بكلوريوس في اللغـة الإنكليزية والأدب الإنكليزي[٣].، وتعرّف خلال سنوات الدراسة بشخصيات أدبية مثل: الشاعر عبد الوهـاب البياتي، والكاتب جبرا إبراهيم جبرا، والشاعر الكبير سليمان العيسى، والشاعرة نازك الملائكة، ولميعة عباس عمارة والروائي محي الدين آسماعيل..وآخرين.

تميزّت حياته – بصفة عامة - بالشقاء وعدم الاستقرار على الصعيد: الشخصي والعام.

وعلى مستوى حياته الوظيفية فقد عانى في حياته الوظيفية والعامة من الفصل والبطالة والنفي لسنين طويلة نتيجة مواقفه السياسية[٤]، وأخيرا توفي وهو يعاني مجموعة أمراض خارج وطنه يوم ١٩٦٤/١٢/٢٤. ١٩٦٤/١٢/٢٤.

وخلال هذه السنين الصعبة أنجز الشاعر عددا كبيرا من الدواوين وبعض المقالات وأعمال مترجمة.

بـ رمز الطفل والطفولة في الشعر العربي الحديث

يزخر الشعر العربي بالكثير من الظواهر الفنية؛ التي يجدر بنا الوقوف عليها ودراستها، ومن هـذه الظواهر ظاهرة شديدة البروز ألا وهي استخدام الشعراء للرموز المختلفة، وقد نال كثير من هـذه الظـواهر

---

[١] أضواء على شعر وحياة بدر شاكر السياب، محمود العبطة، ص ٢١-٢٢.

[٢] ديوان (إقبال) ص٨١.

[٣] شعر بدر شاكر السياب- دراسة فنية وفكرية- حسن توفيق،ص٤٥-٥٠.

[٤] صفحات مطوية من أدب السياب، خالص عزمي، ص٩-١٠.

قدراً كبيراً من الدراسة والاستجلاء والتحليل، غير أن هناك ظاهرة مهمة لم تحظ بالدراسة، تلك هي ظاهرة استخدام الشعراء للطفل بوصفه رمزاً لأغراضهم المختلفة، وعل هذا كان باعثا لهذا البحث .

لقد تمّ توظيف الطفل رمزاً سياسياً، حين جعلوه رمزاً للثورة المنتظرة تارة، ورمزاً لنقد السلطة المهملة لحق الأمومة والطفولة تارة أخرى، كما تم توظيف الطفل رمزاً للوطن المحتل، وأخيراً رمزاً لمستقبل أفضل.

وقد بدا أن الشاعر العربي أفاد من هذا التوظيف؛ حيث استطاع توجيه رسائل احتجاج سياسية موجعة في بعض الأحيان، ما كان له أن يوجهها بغير ذلك القناع الرمزي، إذ استطاع الشاعر من خلال هذه التوظيفات أن يلفت النظر إلى قضايا خطرة تهدد وحدة المجتمع وتماسكه، كما استطاع التنبيه إلى قيم عالية من شأنها أن تحفظ المجتمع وذلك من خلال التغني بالحب، والبراءة، والسلام، والدعوة إلى نبذ الحروب والتنديد بها والتحذير منها، وكذلك تمّ توظيف الطفل رمزاً ذاتياً، إذ كشف الشاعر العربي المعاصر عن معاناته وتطلعاته الذاتية، كالحزن ، و الخوف ، والغد الواعد...الخ[١].

ولعل الرصافي يأتي في مقدمة الشعراء العرب الذي عني بشأن الطفل والطفولة العراقية والعربية ، وذلك لطبيعة عمله في حقل التربية والتعليم ، إذ حوى شعره عشرات الأبيات التي تصور بؤس الأطفال ومعاناتهم.

ويذكر معه بعض الشعراء والكتاب العرب المعاصرين له ، أمثال : أحمد شوقي، ومحمد الهراوي، وكامل الكيلاني، وسليمان العيسى...

المبحث الأول
السياب الطفل، كما صوره في شعره

عرفنا عن حياته المبكرة أنه عاش آبنا للجنوب بين آشجار النخيل وسواقي شط العرب :

لقد لاح لي من ذكرياتي بوادر... وإن هوى نفسي بتلك البوادر
فتلك رسوم الريف تحيا بخاطري... كما عاش في الأوتار أنغام ساحر
وتلك الحقول الزهر تنسلّ بينها... جداول ماء بين وانٍ وفائر
عليها جسور من جذوع نخيلها... تئنّ وتشكو تحت أقدام عابر[٢]

وفي جيكور بدأت معالم طفولته ، بين كنف عائلة كبيرة شأن أغلب العوائل الريفية العربية ، لكنه حظي بمكانة خاصة لدى (كريمة- والدته) لأنه الولد البكر، وعاش بدر الطفل مع أطفال القرية، يلعب بين أشجار النخيل ، وعلى ضفاف الشاطىء:

آه لو تكتمين سرّي لحدثتك... عن جنّة تركتها ورائي
عن هواي القديم في الريف... والأحلام والأنس والمنى والرجاء
كم لجأنا إلى الشواطىء ... نتروح في لذة عطور السماء[٣]

---

[١] ينظر: دراسات في الأدب الجاهلي، منطلقاته العربية وآفاقه الإنسانية (الفصل الثالث- الطفولة ورموزها في التراث والأدب)، د. عادل جاسم البياتي،ص ٣٧٧-٤٠٦.

[٢] ذكريات الريف- ديوان (إقبال)، مج الكاملة ، ص٤١٣.

[٣] شعاع الذكرى- غير منشورة سابقا في ديوان، مج الكاملة، ص٤٣٢.

لقد علق قلبه بالقرية وناسها وطبيعتها فبات يتذكرها لسنين طويلة ، وخاصة حين كان يشعر بالوحدة والضياع في المدينة التي عاشها حزنا وألما ودسائس وسجون ونفي، وهذا يعني أن الطفولة صارت عنده ملاذه الآمن الذي يُشعره بالفرح والبراءة والصدق والضحك :

ياصباي الذي كان للكون عطراً وزهواً وتيها ..

كان يومي كعام تعدّ المسرّة..فيه نبضاً لقلبي تفجّر منها على كل زهرة ..

كان للأرض قلبٌ أحسُّ به في الدروب...

في البساتين ، في كلِّ نهر يروي بنيها...آه جيكور، جيكور!... [١]

ونراه يكرّر - بصور شعرية - موطن طفولته، وهو قريته (جيكور) سواء من باب الحنين إلى الطفولة السعيدة، أو من باب تذكر أحداث ألمت بحياته الأولى حيث حرم حنان الأم والأب، ثم جدّته :

خيالك من أهلي الأقربين ... أبرُّ وإن كان لا يعقل

أبي منه قد جرّدتني النساءُ ... وأمّي طواها الردى المعجّل

ومالي من الدهر إلا رضاك... فرحماك فالدهر لا يعدل[٢]

ويقول عن جدّته في قصيدة يرثيها:

أنت يا من فتحت قلبك بالأمس لحبي أوصدت قبركِ دوني

ليتني لم أكن رأيتك من قبلُ ولم ألق منكِ عطف حنون

آه لو لم تعوديني على العطف وآه لو لم أكن أو تكوني[٣]

فهذه كلها ومضات وصور اكتنزتها ذاكرته عن طفولته التي تأرجحت بين السرور واللعب حينا ، والحزن والحرمان حينا!، فهذه دار جدِّه المقفرة ، يدخلها بعد سنين :

مطفأة هي النوافذ الكثار...
وباب جدّي موصد وبيته إنتظار...
وأطرق الباب .. فمن يجيب، يفتح ؟!
تجيبني الطفولة ، الشباب منذ صار،
تجيبني الجرار جفَّ ماؤها، فليس تنضح:
بويب، غير أنها تذرّ ذرّ الغبار...[*]
مطفأة هي الشموس فيه والنجوم... [٤]

---

[١] جيكور شابت- ديوان المعبد الغريق، مج الكاملة، ص١٣٠.
[٢] خيالك- ديوان (إقبال)، مج الكاملة ، ص٨١.
[٣] رثاء جدّتي- ديوان (إقبال)، مج الكاملة، ص٧٨.
[*] بويب هو أحد الجداول التي تمتلىء بالماء عندما يفيض شط العرب.
[٤] دار جدّي- ديوان المعبد الغريق، مج الكاملة، ص١٠١.

إذن كانت دار جدّه كبيرة عامرة بدليل كثرة نوافذها، والجرار التي كانت تملأ بالماء لكثرة الشاربين أو المستعملين منها، واليوم صارت فارغة علاها الغبار، ولم تعد الجرار تنضح..!وهذه الصورة طبعا إرتفعت من دلالاتها المادية الواقعية إلى مستوى رمزي دال على الشعور بالضياع والشعور بالوحدة والإغتراب.....الخ.

ومن فترة صباه يتذكر واقعة أخرى من نمط حياته ، وهي عن علاقة عاطفية بريئة نشأت مع فتاة راعية أحبها وعشقها ؟!:

لقد حدثوني بموت القطيع.... فشدَّت على القلب كفٌّ الألم

رأيتك تبكين بين الثرى.... وتستصرخين رعاة الغنم

وحولك سرب من الراعيات... يخففن عنك الضنى والسأم[١]

فمن تكون هذه الفتاة الراعية التي كان يذكرها بين حين وآخر؟! وقد ذكرت بعض المصادر أن آسمها هالة:

أبدا تذكرني المروج بمن نأت ْ....وربابة الراعي تهيج الشوق لي

في كلّ زاوية نظرت رأيت من .... آثارها ما خلفته لمقتلي! [٢]

أو قد تكون وفيقة- إحدى بنات عمومته والتي تزوجت فيما بعد، فظلت تمثل بالنسبة إليه الحلم الممتنع، وقد عكس ذلك في شعره(ولعلّ قصيدة –على الشاطىء- التي نظمها بدر عام ١٩٤١ أن تكون أقدم قصائده ، وهي قصيدة نظمها للتعبير عن خيبته العاطفية الأولى)[٣]:

خلا من طيفها النهر... فأين الحبّ والعهد؟

سدى قضيت أيامي....على شطآن أوهامي

ولا صفو ولا قرب....فردّي بعض أحلامي[٤]

ومن أخريات فترة طفولته – كذلك- يتذكر بدر شناشيل مدينة أبي الخصيب، حيث كان تلميذا في المرحلة المتوسطة، وكانت مدرسته تعود لعائلة ثرية من الملاكين الكبار الذين يمتلكون بيوتا فيها شرفات خشبية ذات نوافذ زجاجية ملونة(تسمى شناشيل)، وهناك أحس بأن الوصول إلى هذه الشناشيل حلم بعيد عال لفلاح صغير، فنراه يعبر بعد سنين عن ذلك الحلم بقصيدته الشهيرة (شناشيل آبنة الجلبي) التي ضمنها بعض الأهزوجات الشعبية كان الأطفال يردد ها في الأيام الممطرة:

يامطرا ياحلبي
عبر بنات الجلبي
يامطرا ياشا شا

---

[١] رثاء القطيع- ديوان (إقبال)، مج الكاملة ، ص٤٢٩.

[٢] تنهدات- غير منشورة في ديوان سابقا، مج الكاملة ، ص٤١٨.

[٣] بدر شاكر السياب- دراسة في حياته وشعره، إحسان عباس، ص٢٩.

[٤] على الشاطىء، غير منشورة في ديوان سابقا، مج الكاملة ، ص٤١٠.

عبر بنـــات الباشا

....

ثلاثون آنقضت ، وكبرت : كم حب وكم وجد

توهّج في فؤادي

غير أنِّي كلما صفقتْ يدا الرعد

مددتُ الطرف أرقب، ربما ائتلقَ الشناشيل

فأبصرتُ آبنةَ الجلبي مقبلةً إلى وعدي !

ولم أرها ...هواءٌ كلُّ أشواقي ، أباطيل

ونبت دونما ثمرٌ ولا ورد.. [1]

مخيلة المكان في طفولة الشاعر هي ذاتها طفولة جيكور وبويب وتلك المنازل المحتفية بصمت مـــن يموتون ويولدون في دورة حياتية يائسة لا يرتقى فيها كما يرى السياب سوى الشعر وأحزانه الكثر، لهذه تأتي كثير من مقاطع شعره الوصفية مقترنة بالطفولة والموت كواحد من إسقاطات ما كان(السياب الطفل) يـــراه ويعيشه، صور من اليتم والفقدان والاغتراب، صورة للحنان الضائع والتساؤل البدائي الذي كان يلـــف عينيـــه وهو ينحدر بعيدا عن جيكور إلى مقبرتها النائية ليسأل عن الصمت المكتئب والاندثار الأزلي لأمومته والفقدان المبكر للأشياء ، إنها مخيلة قلقة ولدت من تراكيب الحيرة والصراع النفسي والطبقي وتأثيرات الداء والعوز، فمثلا كان يسترجع من طفولته ذكرى الساعات الأولى لرحيل أمه ، فيقول من قصيدته (أنشودة المطر)[2]:

كأن طفلا بات يهذي قبل أن ينام

بأن أمه ــ التي أفاق منذ عام

فلم يجدها ، ثم حين لج في السؤال

قالوا : بعد غد تعود

لابد أن تعود

وأن تهامس الرفاق أنها هناك

في جانب التل تنام نومة اللحود

وفي مقطع من القصيدة نفسها يصور كيف أنه حين مرّ بأحد المقاهي في الغربة وكانت الأغنية التي تدور حول العراق، عاد بذكرياته للوطن، وذكريات قديمة مفقودة من طفولته فيحـــاول تـــذكر صـــور مـــن الماضي! صورة وجه أمه حين كانت تجلس بجانبه لتنومه، ثم صورة النخيل الذي يُظلم بعد الغروب حيـــث تخرج منه الأشباح لاختطاف الأطفال الذي لا يعودون لبيوتهم بعد الغروب ، ثم جدته العجوز التي تفلّـــي لـــه شعره وتروي له قصة عروة ابن حزام وموته دون أن يحصل على محبوبته عفراء.

---

[1] شناشيل ابنة الجلبي، ديوان شناشيل ابنة الجلبي وإقبال، مج الكاملة، ص٣١٤-٣١٥.

[2] (أنشودة المطر)- مج الكاملة، ص٢٥٣-٢٥٧.

هي وجهُ أمي في الظلام
وصوتها يتزلقان مع الرؤى حتى أنام
وهي النخيل أخاف منه اذا ادلهم مع الغروب
فاكتظ بالأشباح تخطف كل طفل لا يؤوب من الدروب
وهي المفلّيةُ العجوز وما توشوشُ عن حزام
وكيف شقّ القبرَ عنهُ أمام عفراء الجميلة
فاحتازها الا جديلة..![1]

هذه هي الصور الثلاث: الأولى من دفق صور طفولة الغريب (الأم ، النخيل، الجدة المفلّيــة) ، ١- وجه أمه في الظلام: ربط بين وجه أمه والظلام لأنه فقد أمه صغيرا فهو لا يذكر ملامحها جيدا.
٢- النخيل والأشباح: استخدام للموروث الشعبي العراقي (خرافة الأشباح التي تخطف الأطفال من الطرقــات حين لا يعودون لبيوتهم بعد الغروب).
٣- عروة بن حزام: توظيف الفولوكلور حيث عروة هو السياب فعروة أحب عفراء ومــات دون أن يحصــل عليها مع أنها كانت أمامه كذلك السياب أحب العراق وحُرِم منه كما حرم عروة.

هكذا بقي السياب يشعر بالحنين لهذه الفترة وهذه الذكريات ، فهي المرحلة الحميمية من حياته رغم فقده لأعز الأشياء.

فرغم معاكسة القدر - التي هي جزء هائل من عالم الشاعر وما تعرض له- إلاّ أنه كان يحيي آماله ويحول يأسه إلى يقين بالغد الوليد المتمثل بالطفل والطفولة، وهذا ما سيكون محور بحثنا التالي.

المبحث الثاني
رمز الطفل والطفولة في شعره..

كل تلك الأحداث في حياة الصغير جعلته يستشعر الألم والحرمان والضعف إزاء أقدار عاكسته بقوة ودون رحمة ، فلابدّ أن تترك تلك الوقائع آثارها في شعره ، حيث عرف عنه تحولات شعرية في توظيف كل مشاهد الحياة من معانيها المباشرة – الواقعية إلى رموز ودلالات ، ومن بين هذه الأشياء صور الطفولة التي أخرجها من دائرتها الضيقة الوصفية إلى عالم الحياة الإنسانية.

فمثلا في قصيدته (الأسلحة والأطفال) نراه يجعل الأطفال رمزا للانبعاث والتجدد حين تشيخ الأرض وتقل مباهجها وحركتها:

ومن يُفهم الأرضَ أن الصغار
يضيقون بالحفرة الباردة[2]

ويذكر الشاعر في الهامش المتعلق بهذين البيتين ما يدل على أن المعنى هو (الأرض عجوز شاخت حتى لا تعلم بأن الصغار حركون كظلال الربيع)!، ولاشك أن السياب كان في هذه المرحلة من تعامله مــع الطفولة وغيرها قد بدأ مرحلة تحول في أسلوب الكتابة الشعرية فلذا جاءت صوره فنية وليست نقلية تسجيلية،

---

[1] قصيدة (السجين) من ديوان (البواكير)، مج الكاملة، ص٤٢٦.
[2] قصيدة الأسلحة والأطفال- ديوان أنشودة المطر، مج الكاملة، ص ٣٠٤.

لأنه- كما يقول د. عبد الواحد لؤلؤة- كان قد تأثر بتيارات شعرية أجنبية ، مثل شعر:الشاعرة الإنكليزية (إيديث ستويل)، والشاعر الإنكليزي (ت.س. إليوت)، والشاعر الأسباني (غارسيا لوركا)، وآخرين[١].

ومثل هذا التوجه في آستخدام الطفل والطفولة رمزاً نجده في قصائد عديدة ، مثل تحول طفولته من واقعيتها إلى أروع ذرى لم يبلغها من قبل، كما في قصيدة (أنشودة المطر)، وقد إستفاد من الرموز الأسطورية ومن البناء الأسطوري بدون أن يذكر الأسطورة صراحة) [٢]، فالأم والطفل - الملحودين بسبب الفقر والجوع في قبر قرب تل- سيعودان بفعل المطر (الثورة والتغيير)، وهكذا جعل السياب الأم هي الوطن، والطفل رمز التجدد وآستمرار الحياة

في كلّ قطرة من المطر
فهي إبتسام في إنتظار مبسم جديد
أو حلمة توردت على فم الوليد[٣]

وفي قصيدته (مدينة بلا مطر) حيث العراق الذي عانى الكثير من المآسي، فيصوره في جوٍّ أسطوري- بابلي ، لكن معاناته التاريخية هذه - الطويلة القاسية- ستتبدد عندما يسير أطفال بابل (رمز الجيل القادم الذي ستتحقق على أيديه الثورة والتحرر) ، فهم يجعلون أجسادهم ودماءهم قرباناً لعشتروت، فتستجيب السماء لصراخاتهم :

وسار صغار بابل يحملون سلال صبار
وفاكهة من الفخار قربانا لعشتار..
.....
سمعنا لا حفيف النخل تحت العارض السحاح
أو ما وشوشته الريح حيث ابتلت الأدواح
ولكن خفقة الأقدام والأيدي
وكركرة وآه صغيرة قبضت بيمناها
على قمر يرفرف كالفراشة، أو على نجمة
على هبة من الغيمة..
على رعشات ماء، قطرة همست بها نسمة
لنعلم أن بابل سوف تغسل من خطاياها[٤]

هذا التماسك المعنوي والفني بين مكونات القصيدة: الوطن الذي يعاني، والنهضة والحركة، وصوت الرعود – الثورات والآنتفاضات، وتطلع نحو الخلاص، والغد – التحرر يحققه وجود الأطفال – جيل المستقبل .

في مطالع أغلب قصائده!؟ أطفال العراق يصيبهم البؤس والفقر والجوع والموت لأن معاناتهم من معاناة المجتمع بأكمله من حكام فاسدين - طغاة:

---

[١] ينظر كتاب، البحث عن المعنى، د. عبد الواحد لؤلؤة، ص ١٦٧-٢٢٦.
[٢] بدر شاكر السياب، ريتا عوض، ص٣٧.
[٣] (أنشودة المطر)- مج الكاملة، ص٢٥٣-٢٥٧.
[٤] قصيدة (مدينة بلا مطر)- ديوان أنشودة المطر، مج الكاملة، ص٢٦١-٢٦٢.

ويملأ الفضاء زمزمه
يمزق الصغار بالنيوب، يقضم العظام...
أشداقه الرهيبة الثلاثة احتراق
يؤجّ في العراق

إلاّ أن الشاعر لا يترك مصير الوطن وأبنائه ومنهم الأطفال بيد الموت والفقر والضياع، بل ينهي خاتمة قصائده دائما بأمل بزوغ شمس حياة أخرى، ويتخذ من الطفل والطفولة رمزا على هذا الأمل والحياة المنتظرة:

ليعوِ سربروس(*) في الدروب
لينهش الآلهة الحزينة ، الآلهة المروعة
فإن من دمائها ستخصب الحبوب
سينبت الإله ، فالشرائح الموزعة تجمعت، تململت،
سيولد الضياء من رحم ينز بالدماء... (١)

ففي البيت الأخير يولد الأطفال- الضياء من أعماق وجدان الشعب الذي يعاني المآسي، فصارت الطفولة هنا رمزا لبزوغ فجر حياة جديدة.

رغم أنه – في أغلب صور ذكرياته عن طفولته وحياته الشخصية - وجدناه يتداعى لليأس لأنه كان يؤمن بشكل قاطع استحالة مغالبة القدر وتحقيق ما كان يتمنى ويحلم !، لكنه – بعد مرحلة الرومانسية في شعره – بدأ يتميز على مجايليه بأن حملته موهبته ومعرفته الجيدة بالأدب الغربي وترجماته له بدأ يميل إلى اكتشاف رؤية جديدة للقصيدة العربية فيها نمط مغاير من الجمال والتصور والموسيقى.

ومثال ذلك - في مجال موضوعنا- هذه المقاطع من قصيدة (مرحى غيلان) التي ضمنها في ديوانه (أنشودة المطر) – وغيلان ابن الشاعر- !إذ جعل نداءه (بابا) يؤدي إلى إحلال الخصب في الأرض القاحلة، يباب الروح!، وإلى انتصار مبادىء الخير على قوى الظلام والدمار :

بابا.....بابا!
ينساب صوتك في الظلام ، إليَّ، كالمطر الغضير..
ينساب من خلَل النعاس ، وأنت ترقد في السرير...
من أيّ رؤيا جاء ؟ أي سماوة ؟ أيّ انطلاق؟
وأظلّ أسبح في رشاش منه ، أسبح في عبير..
فكأنّ أودية العراق...
فتحت نوافذ من رؤاك على سهادي..
كلّ وادٍ وهبته عشتار الأزاهر والثمار..
كأن روحي في تربة الظلماء حبة حنطة وصداك ماء...
أعلنتِ بعثي ياسماء....

(*) سربروس: كلب الجحيم الذي يحرس مملكة الموت السوداء، وهذا الكلب ذو رؤوس ثلاثة.....ينظر، حسن توفيق، م.س، ص٢٢٠.

(١) قصيدة سربروس في بابل- ديوان أنشودة المطر، مج الكاملة ، ص ٢٥٨-٢٥٩.

هذا خلودي في الحياة تكنُّ معناه الدماء..

هكذا آستطاع أن يدفع بكتل الحس الذاتي إلى رؤية إنسانية مليئة برغبة الحياة ، والتواصل، والأمـــل بتجـــدد الانبعاث والنهضة:

بابا.... بابا
جيكور من شفتيك تولد، من دمائك، في دمائي
فتحيل أعمدة المدينة..
أشجار توت في الربيع ، ومن شوارعها الحزينة
تنفجر الأنهار، اسمع من شوارعها الحزينة
ورق البراعم وهو يكبر أو يمص ندى الصباح[1].

ولعله صعّدت تلك الصور والترميزات من قيم الطفل والطفولة فجعلتهمـــا فـــي مصـــافي الرمـــوز التاريخية والأسطورية، مع أن هذه الأخيرة قد تكون قد تجمدت في دلالاتها بينما رموز الطفولة تتجدد وتتوالد دائما، ولو جرى البحث عن لفظة الطفل أو الطفولة في قصائد دواوينه كافة، فإنني أجـــزم لوجـــدت أن ٩٠% منها قد تضمنت هاتين اللفظتين ليست كلمات مفردة مباشرة بل في صور ذات دلالات تأخـــذ أبعـــادا فكريـــة ترتقي إلى مستوى الترميز.

[1] قصيدة (مرحى غيلان)، ديوانه (أنشودة المطر)، مج الكاملة ، ص١٨٤-١٨٥.

المصادر

(١)- أضواء على شعر وحياة بدر شاكر السياب، محمود العبطة، مطبعة دار السلام، بغداد، ط١(١٩٧٠).
(٢)- البحث عن المعنى ، د. عبد الواحد لؤلؤة ،
(٢)- بدر شاكر السياب- دراسة في حياته وشعره، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط١(١٩٦٩).
(٣)- بدر شاكر السياب، سلسلة أعلام الشعر العربي الحديث، ريتا عوض ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، منشورات وتوزيع المكتبة العالمية، بغداد، مط الانتصار، ط٢(١٩٨٤).
(٤)- دراسات في الأدب الجاهلي، منطلقاته العربية وآفاقه الإنسانية (الفصل الثالث- الطفولة ورموزها في التراث والأدب)، د. عادل جاسم البياتي، المغرب، الدار البيضاء، نشر و طبع دار النشر المغربية (١٩٨٦).
(٦)- شعر بدر شاكر السياب، دراسة فنية وفكرية، د. حسن توفيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، بيروت ، ط١(١٩٧٩).
(٧)- صفحات مطوية من أدب السياب، خالص عزمي، وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ط ١(١٩٧١).
(٨)- المجموعة الشعرية الكاملة للشاعر العراقي بدر شاكر السياب (الجزء الأول والثاني) ، منشورات دار مية، سوريا، دمشق، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م).